محمد في المدينة

تأليف : مونتجومري وات

تعريب : شعبان بركات

منشورات المكتبة العصرية - صيدا - بيروت

المطبعة العصرية للطباعة والنشر
صيدا - لبنان - تلفون ٧٢٠٦٢٤

الفصل الأول

تحدي القرشيين

١ ـ الحالة عند الهجرة

تبدأ الفترة المدنية من حياة محمد بوصوله إلى قباع في واحة المدينة في ٤ أيلول سنة ٦٢٢ م (١/٣/١٢) . فقد أصبحت الحياة ، بالنسبة اليه ، مستحيلة في مكة ، بسبب المعارضة التي أثارها ضده ، وكان قد عقد اتفاقاً مع زعماء المدينة . وسندرس طبيعة هذا الاتفاق فيما بعد .

وكان هذا يعني ، من الناحية الدينية ، قبول محمد كنبي ، ومن الناحية السياسية كحكم بين الفئات المتنازعة في المدينة . ويبدو أن الكثيرين كانوا مخلصين في قبوله كنبي ، وإن كان البعض لم ينظر إلى المسألة إلا من الناحية السياسية . وقد سبقه إلى المدينة ، اعتماداً على هذا الاتفاق ، سبعون من أتباعه المكيين حيث أقاموا برعاية أنصاره المدنيين . وهكذا أصبح لمحمد ، عند قدومه إلى المدينة ، حاشية دينية قوية ، كما أصبحت له مكانة سياسية مهمة نوعاً ما في أمته ، وإن كان اتساع مدى سلطته لم يحدد

تماماً . وقد سمي كل من أتباعه في مكة والمدينة بالمهاجرين والأنصار [1] .

وتوجه محمد على فرسه ، بعد أن أقام بضعة أيام في قباع ، نحو وسط الواحة واختار مكاناً لبيته ، وكان يقيم قريباً منه أثناء بناء البيت . وقد أصبح هذا البيت والساحة التي أمامه فيما بعد ، الجامع الكائن في وسط المدينة الحديثة . ولم تكن كثافة السكان أيام محمد ، في هذا الموضع ، أكثر منها في مكان آخر من الواحة .

وكانت المنشآت الاولى نحو الجنوب في العالية . قام محمد إذن وسط أصحابه ، وقد شغل جداً خلال الأشهر الاولى في المدينة ، بتسيير الشؤون الدينية والدنيوية لأمته . وكان نشاطه متعدد الجوانب ، ولا يملك إلا القليل من المعطيات التاريخية ما عدا الشؤون الخارجية والغزوات . فمن الأفضل إذن أن نعالج أولا الشؤون الخارجية ، أي العلاقات مع كفار مكة ، ومع القبائل البدوية . ثم ننظر فيما بعد ، حسب نظام منهجي أكثر منه زمنياً ، في مختلف جوانب الحياة الداخلية لحياة الأمة الإسلامية .

٢ ـ الغزوات الأولى

سميت المحاولات الاولى لجمع المعلومات عن سيرة محمد « المغازي » وإذا لم تكن الفترة المدنية مفعمة بالمغازي ، فإنها لعبت فيها دوراً عظيما . ولذلك كان من الطبيعي تأريخ حادث ما بغزوة من الغزوات . ولقد وقعت

---

(١) ربما كان اسم الانصار مشتقاً من قرآن ٦١، ١٤ . راجع أيضاً ج . هوروفتز Koranische untersuchingen برلين ١٩٢٦ ، ٩٩ .

من بين الأربع وسبعين غزوة، حسب قائمـــة الواقدي ، سبع غزوات في الثانية عشر شهراً الاولى بعد الهجرة . وأهم هذه الغزوات ضئيلة لأنـه لا يبدو أن شيئاً حدث بسببها ، ومع ذلك فهي أمثلة رائعة على موقف محمد من المكيين ، بعد رحيله عن مكة .

والشيء الجدير بالملاحظة هو أن المسلمين قاموا بالهجوم ، وقدأرسلت هذه الغزوات السبع ، ما عدا واحدة، ضدالقوافل المكية . وساعـــد على ذلك الموقع الجغرافي . فقدكان على القوافل المسافرة من مكة إلى سورية أن تمر بين المدينة والساحل ، حتى ولو ظلت ، أقرب ما يمكن من البحر الاحمر ، فقد كان عليها أن تمر على مسافة ١٣٠ كلم من المدينة على الاقل. حتى إذا ما وجدت بعيدة هذه المسافة عن قاعدة العدو ، فإنها تجد نفسها مرتين أبعد عن قواعدها الخاصة . فما كان على المهاجمين إلا الاهتمام بالفرقة المرافقة للقافلة ، ثم يعودون أدراجهم بسهولة ، قبل ظهور أي جماعـــة للمساعدة . وكانت فكرة هذه المغازي ــ كما هو الحال في حروب العرب في الصحراء ــ هي مفاجأة العدو باعداد الكمائن له مثلا . ويبدو في هذه المغازي الاولى أن الفرصة المواتية لم تتح لهم . غير أن عدم سنوحها لم يدفع المسلمين إلى المخاطرة في القيام بهجوم وجهاً لوجـــه ، بل كانوا ينسحبون بكل بساطة .

وكان عدد الرجال المشتركين في الغزوتين أو الثلاث الاولى يتراوح بين ٢٠ ــ ٨٠ رجلا . بينما يقال ان هذا العدد ارتفع إلى ٢٠٠ في غزوات نهاية ٦٢٣ م التي اشترك فيها محمد نفسه .

وكانت القوافل المهاجمة قوية جداً ، واحدة منها تتألف من ٢٥٠٠ جمل يصحبها ٢٠٠ إلى ٣٠٠ رجل . ربما كانت هذه الارقام مبالغ فيها لأنه لم يكن يوجد سوى ٧٠ رجلا في القافلة المهمة التي كانت السبب في معركة بدر ، وربما كان ضعفها هـــذا هو الذي حمل القرشيين على الخروج بكثرة .

لو كان مع محمد ٢٠٠ رجل أو ١٥٠ لكان الأنصار من بينهم ، و تجمع المصادر على أن معركة بدر ، كانت الاولى التي يشترك فيها الانصار ، غير أن هذا الاجماع ليس تاماً . ففي المقطع الوحيد الذي يذكر فـــيه اسم الرواة ، يتملكنا الشك لأن الاسماء الاخيرة في الرواة متأخرة وهي أسماء أشخاص يظهرون في الخلافات الفقهية ، بالاضافة إلى أنهم جميعاً ينتمون لبني مخزوم من قريش .

ولما كان محمد لديه أقل من مئة مهاجر في معركة بدر ، حيث كانوا جميعاً حاضرين ، فهناك مجال للقول بأن الانصار اشتركوا ، على الاقل، في أكبر الغزوات الاولى .

وقد أتيحت لمحمد بعض الفرص للحصول على رجال غير المهاجرين الأصليين . وانضم اليه مكيون آخرون . فلقد ترك عياش بن أبي ربيعة (من مخزوم) وهشام بن العاص (من سهم) مكة خـلال السنة الاولى للهجرة ، وربما كان رحيلهما له عـلاقة بموت الوليد بن المغيرة سيد بني مخزوم الكهل .

وانقلب مقدادبن عمرو وعتبة بن غزوان (وهما حليفا بني زهرة

وبني نوفل) أثناء غزوة عبيدة . كما مال اليه بعض البدو طمعاً بالمال .

حدث ذلك في السنوات التالـــية ، قبل معركة بدر . ولكن لا تستطيع هذه المساعدات أن ترفع العدد إلى ١٥٠ . وبالاضافة إلى هذه الحجة التي تعتمد على الارقام ، فإن عمل مجدي بن عمرو مـن بني جهينة خلال غزوة حمزة وقيامه بالوساطة بين المسلمين ، وبين قوة ضخمة من المكيين ، سببه وجود مدنيين متحالفين مع جهينة [١] ، بين المهاجمين . ولئن خلت هذه الغزوات السبع من القتال، فإنها لم تخل من نتائج إيجابية للمسلمين .

ولا شك أن قدرة محمد عـــلى التنقل بصحبة قوة ضخمة ومحاولته الهجوم على المكيين الاقوياء قد أثر في البدو . وربما كان بنو جهينة ميالين للانضمام اليه ، لأن بعض أفرادها كانوا حلفـــاء بعض الانصار .

كما عقدت معاهدات عدم اعتداء مع بني دمرة وبني مدلج . وكانت نصوص هذه المعاهدات تقوم على أن لا تعتدي قبيلة على أخرى وأن لا تنضم لحلف ضد الاخرى ، وأن لا تساعد أعداء القبيلة الاخرى [٢] .

نستطيع أن نرى في كل ذلك نية مبيتة من محمد لتحدي المكيين . ولما كان الانصار قد اشتركوا في الحرب ، فلا بد أنهم كانوا على علم بهـــذا المخطط ، ولا شك أن زعماءهم اطلعوا على سياسة محمـد قبل دعوتـه إلى المدينة .

---

(١) ابن هشام ٤١٩ ، الواقدي ٣٣

(٢) ابن سعد ٢ ، ١، ٣، ١٧-٢٠، ص ١٠٥

ولكن من الصعب معرفة نوايا محمد في هذا الوقت : هل كان هدفه سلبياً ، وهو تحطيم تجارة قريش ؟ أم كان ينظر إلى أبعد من ذلك وهو فتح مكة ؟

لا شيء يدل على أن محمداً كان يفكر في الاستيلاء على تجارة مكة من أجل المدينة (وإن كانت إحدى الغزوات اللاحقة تجارية جزئياً) . فلم يكن قد استكمل قوته بعد في المدينة ، ولم يكن لديه رجال يضحي بهم ، وتدل الغزوة الوحيدة في البداية ، التي لم تكن ضد المكيين ، ألا وهي الغزوة ضد كرز الفهري على الاخطار التي كان عليه أن يحذرها باستمرار ، وكانت محاولة لمعاقبة لص استولى على جمال لأهل المدينة كانت في المرعى .

ولقد قلق القرشيون لهـــذا التهديد لتجارتهم ، وإن لم يصابوا بالخسائر ، وبالرغم من كل الاحتياطات التي اتخذت ، فقد كان هناك أمل في أن يجد المسلمون يوماً الفرصة التي يبحثون عنها ، وكان يعني هـذا خسارة جسيمة لقريش . ولم يفعل القرشيون ، حتى الآن ، أي شيء غير أن حماسهم في القتال في بدر يدل على هذا القلق .

لا يشير القرآن صراحة إلى المغازي الاولى ، ولكنه يشير إلى موقف المسلمين بالنسبة للقتال المسلح . ونفهم من أقدم النصوص أن المهاجرين كانوا يرغبون في القتال ، لانه يقول بأن الله سمح لهم به « إذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير . الذين أخرجوا من

ديارهم بغير حق ، إلا أن يقولوا ربنا الله »[1] .

ثم نزل الوحي فيما بعد يدعو المسلمين ، مهاجرين وأنصاراً ، للقتال : « وقاتلوا في سبيل الله واعلموا أن الله سميع عـــليم »[2] . ويبدو أن الحماس في إطاعة هذا الامر ، كان خفيفاً لأن هناك عدة اشارات إلى استنكاف الكثيرين عن القتال[3] . نجد عندئذ حافزاً جديداً ، وهو القول بأن الله يفضل المجاهدين على القاعدين وان للمجاهدين « أجراً عظيما » في الجنة[4] .

وهكذا كان المسلمون يحصرون نشاطهم السياسي والحربي في نطاق ديني .

٣ـ المعركة الأولى

الرواية العادية للمعركة الاولى بين المهاجرين المسلمين والقرشيين الكفار التي وقعت خلال غزوة نخلة هي رواية ابن اسحق عن عروة ، وقد نقلها عن الزهري ويزيد بن رومان . وتقول هذه الرواية ان عبد الله بن جحش ، وهو حليف بني عبد شمس ، أرسل ومعه جماعة من ثمانية إلى عشرة أشخاص وجميعهم من المهاجرين . وقـد أرسل معه محمـد رسالة مختومة وأمره أن لا يفتحها إلا حين يصبح على بعد يومين من المدينة .

---

(١) ٢٢ ، ٣٩ — ٤٠ (٢) ٢ ، ٢٤٤ ، ٢٤٥

(٣) ٢ ، ٢١٦ — ٢١٢ (٤) ٩٥ — ٩٧

(٥) ابن هشام ٢٣ : ٢ — ٢٧ ، الواقدي ٣٤ — ٣٧

ففتحوا الرسالة ووجدوا فيها أمراً بالسير إلى نخلة ، الواقعة على الطريق من الطائف إلى مكة ، وأن ينصبوا كميناً لقافلة مكية . فالتقوا بقافلة مكية في نخلة ، وبددوا شكوك المكيين بالتظاهر بأنهم حجاج ، حتى إذا ما سنحت لهم الفرصة بدأوا بالهجوم . فقتلوا أحد المكيين الاربعة المرافقين للقافلة ،هو عمرو بن الحضرمي ، وأسروا اثنين بينما فر الرابع .

وبالرغم من إنذار العدو ، فقد استطاعوا العودة بالقافلة والاسرى إلى المدينة . وهناك ظهر الخوف من مقتل المكي خلال شهر رجب الذي يحرم فيه سفك الدماء . ولم يوزع محمد الغنيمة في أول الامر ولم يقبل الخمس الذي هو من نصيبه ، حتى نزل الوحي [1] ، وبرر فعلهم . وقد جاء إلى المدينة وفد من مكة للاتفاق على فدية الاسرى فوافق محمد على جعلها ١٦٠٠ درهم عن كل شخص بعد عودة المسلمين اللذين انفصلا عن سائر الجماعة .

نلاحظ أولا، في هـــذه الرواية ، ان محمداً قد اتخذ جميع الاحتياطات للمحافظة على السر .فهو لم يكتف باعطاء قائد الحملة أمراً مختوماً لايعرفه سوى هو وكاتبه ومستشار أو اثنان من مستشاريه الخلص ، بل أرسل الحملة على طريق نجد ، نحو الشرق تقريباً ، بينما كان الهدف النهائي نحو الجنوب . فعل كل ذلك ليمنع جواسيس مكة من اكتشاف مشاريعه .

ربما لأن بعض المحاولات السابقة قد فشلت بعد أن عرف العدو بأمرها ولكن ربما كان ذلك لأن هذه الحملة ستصل إلى نقطة أقرب لمكة منها

---

(١) ،، ٢١٧-٢١٤

إلى المدينة ، ولهذا فهي خطيرة على المشتركين فيها ،إذا تسرب أي خبر عنها إلى الخارج ٠

كما أن تردد رجال الحملة حين قراءتهم لأوامر محمد كان الخطر البديهي على الحملة ، وكذلك الشعور بالخزي مما يطلب اليهم فعله ٠ ربما كان العربي شجاعاً حتى الجنون إذا ما أثير ، ولكنه في حـــالة الهدوء يحاول تجنب الاخطار ٠ ولهذا قال محمد لعبد الله بن جحش ، أن يعيد كل الذين لا يرغبون في تنفيذ المخطط ٠ وهذا ما نجده في قصة سعد بن أبي وقاص ، ورفيقه على ظهر البعير عتبة بن غزوان . اما ان يكون بعيرهما قد ضل ، وإنهما في بحثهما عنه قد ابتعدا عن الحملة ، فهذه هي القصة التي رواها بعد عودتهما للمدينة بعد عدة أيام عـــلى عودة الغزاة المنتصرين ٠ وإذا كانت تلك هي القصة التي رواها ، فإن ذلك لا يعني أن القصة صحيحة ٠

وهناك رواية تجعلنا نفهم انهـــا ليست حقيقية [1] ٠ ولا شك أن الاثنين قد أضاعا كثيراً من الوقت ، ومن الغريب أن يحدث ذلـــك ، في أراضي بني سليم ، القبيلة التي ولد فيها عتبة ٠ وقـــد حدث حادث آخر مؤسف فيما بعد أساء لسمعة سعد في الشجاعة ٠ كان سعد ، في معركة القادسية الكبرى، التي كسرت شوكة الامبراطورية الفارسية ، يقود المسلمين وكان مريضاً ، ولذلك قاد قواته إلى اصطبل في المؤخرة٠ ولربما كانت اشارة المصادر إلى إن سعداً كان اول من حارب من أجل

---

(١) طبري ج ١ ، ١٢٧٨

الاسلام [1] محاولة للتخفيف من هذين الحادثين .

وتتحدث المصادر عن ذلك أكثر من حديثها عن واقد بن عبد الله ، حين قتل عمرو بن الحضرمي ، وكان أول من قتل رجلا في سبيل الاسلام وسبب هذا الفرق ، هو أن واكداً مات في بداية خلافة عمر ، ولم يترك له ذرية ، بينما سعد عاش بعد ذلك أربعين سنة ، وأصبح أحد رجـــال الدولة المرموقين ، كما خلف خلفاً كثيراً . ويروى كثير من أخبار المعارك على لسانـــه أو لسان واحد من أفراد عائلته وتحتوي على كثير من عدم الاتفاق .

كان الشيء الأساسي في أوامر محمد المختومة إلى عبد الله بن جحش ، أن يذهب إلى نخلة ، وينصب كميناً لقافلة قرشية . والشيء الثاني (حسب روايات أخرى) أن يرفع تقريراً لمحمد . وهذه إضافة لاحقة تحاول أن تجعل لكلمة « ترصدوا » بمعنى « راقبوا » بدلا من أن « ينصب كميناً » وهكذا ترفع المسؤولية عن محمد بسبب أي معركة دموية ، ومما لا شك فيه أن محمداً أمر بالقيام بهذه المهمة ، مع علمه بأنها ربما تؤدي إلى سقوط القتلى من رجاله أو من رجال أعدائه . ولا نعرف ما إذا كان محمد يعلم بأن هذه القافلة خاصة ستمر بنخلة في هذا الوقت ، أم انه أرسل رجاله لاحتمال وجود القوافل في هذا الوقت . ولربما قدر أن كل قافلة تسير على الطريق الآمنة بين الطائف ومكة ، تتبعها حراسة ضئيلة ، بسبب الجهود

---

(١) ابن سعد ١٦٦ ، ابن هشام ١٠٣-٩٩

التي بذلت لحماية القوافل إلى سورية، حين مرورها بمنعرج المدينة .

من الممكن أن يكون محمد قد تصرف اعتماداً على الامكانية هذه ولكنه لا يستحيل انه وصلته معلومات خاصة .

هناك مسألة أهم وهي ما إذا كان محمد ينتظر أن يحدث الهجوم على القافلة خلال شهر رجب المقدس . يعين الواقدي وقت الحادث في نهاية رجب ، ويشير إلى أنه كان يجب على المسلمين ، إذا أرادوا مهاجمة القافلة ، إما أن يهاجموها خلال شهر رجب ، أو بعد أن تكون قد دخلت أرض مكة المقدسة . إذا أمكن قبول هذه الرواية ، فيمكن أن تكون القافلة قد قلبت خطط محمد ، وذلك بوصولها مكة قبل الوقت المعين ، أما القول بأن المهاجمين لم يكونوا يعرفون ما إذا كان الشهر الحرام انتهى أو لم ينته ، فهذه محاولة لغسل العار الذي أصبح مشهورا .

ومما يدعو للشك أنه بينما تقول بعض المصادر بأن ذلك كان في نهاية رجب ، إذا بمصادر أخرى تقول ان ذلك كان في مطلع شهر رجب . ويبدو انها كانت تعلم بأن الحادث وقع خلال شهر رجب والباقي يقوم على الافتراض . وإذا كان الأمر كذلك ، فقد وقع الحادث نحو منتصف الشهر ، وقد انتظرت أوامر محمد نصب الكمين أثناء الشهر الحرام .

وإذا افترضنا أن محمداً كان في نيته خرق الشهر الحرام (وإن كان ذلك غير ثابت) فإنه لا يعني انه كان يفكر بارتكاب امر معيب او غير مشرف ، فلقد كان طابع شهر رجب المحرم مرتبطاً بالديانة الجاهلية التي كان محمد يحاربها . ولهذا كان خرق الشهر الحرام كتحطيم الاصنام .

ولكن ماذا نقول عن تردد محمد في قبول خمس الغنيمة ؟ إذلا يعقل أن يتخلى عن اصحابه او يخشى قريش ، وإن كان بعض اليهود في المدينة جعلوا يتندرون حول كلمة قاتل ومقتول ، مما يدل على أن الحرب كانت معلنة . واسهل حل هو التفكير بأنه اكتشف بعد الحادث ، ردودفعل قوية حول خرق الشهر الحرام ، اكثر مما كان ينتظر . وربما خشي بعضهم عقاباً تنزله بهم الآلهة ، وهو عقاب ربما اثر بالطائفة جميعها فيما لو قبلوا الغنيمة . كما لاحظ البعض التناقض بين نقض الشريعة الالهية من ناحية ودعوة محمد إلى التضحية في سبيل الله من ناحية أخرى .

ومسالة الشهر الحرام صعبة[1] . يقول بعض المؤلفين المسلمين ، حسب رأي القرآن (٣٦/٩) انه وجد دائماً اربعة اشهر ، وهي : رجب ، ذو القعدة ، ذو الحجة ، المحرم • غير ان القرآن يتحدث في مكان آخر ، (١٩٤/٢ـ١٩٠ ، ٢١٧/٢-٢١٤ ، ٢/٥ ، ٩٨/٩٧) عن الشهر الحرام . وقد قيل في ذلك ان كل منطقة كانت لها عادات خاصة ، وإن العدد أربعة هو حل وسط . يمكن ان يفسر هذا ، لماذا كان رد فعل المدينة على حادث نخلة مفاجأة لمحمد • وربما كان المدنيون اكثر تمسكاً بالمعتقدات القديمة من المكيين ذلك لأن هؤلاء مرت بهم تجربة الحرب التي تنتهك فيها الامور المقدسة •

---

(١) راجع م . بلسنر مقالتي : « المحرم » و « رجب » في دائرة المعارف الإسلامية .

والآيات التي وضعت حداً لتردد محمد هي التالية : « يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه ، قل قتال فيه كبير ، وصد عن سبيل الله وكفر به ، والمسجد الحرام وإخراج أهله منه أكبر عند الله ، والفتنة أكبر من القتل » (٢/٢١٤-٢١٧) .

تعترف هـــذه الآيات بأن خرق الشهر الحرام شيء خطير ، ولكنه يذكر المسلمين بأن إهانات القرشيين لله أشد خطورة ، ونتيجة ذلك أن ينزل العقاب بالقرشيين . كلمة « كبير » يمكن أن تعني أيضاً « الكبيرة » (أي الخطيئة) ولكن الآيات ليست تحريماً للقتال في المستقبل (وإن كان بعض المؤلفين المسلمين يفسرونها بهذا المعنى و يقولون ان الآيات نسخت فيما بعد) ولكن هذا تبرير لما وقع في الماضي . وربما جهد محمد ، في السنوات التي تلت حادثة نخلة ، في تجنب إرسال الحملات خلال شهر رجب . ويذكر الواقدي حملتين خلال هذا الشهر في السنة السادسة والثـــامنة للهجرة (٦٢٧ ـ ٦٢٩) ، ولكن يبدو انه لم ترق فيهما دماء الاعداء . وان قتل بعض المسلمين في السنة السادسة . وقد أرسلت عدة حملات خلال الاشهر الحرم الاخرى ، ولهذا يؤكد بعض العلماء المسلمين ، اعتماداً على ذلك ، ان تحريم القتال خلال الأشهر الحرم قد نسخ [١] .

لا شيء يثبت أمام الشك والتخمين اللذين مررنا بهما . ومع ذلـــك فالثابت ، ان القوم اتهموا عبـــد الله وجـــنده بأنهم خرقوا شهر رجب ، ولم يكن بامكان محمد أن يبرهن على أن المسلمين لم يرتكبوا ذلك .

---

(١) راجـــع الواقدي ٢٩-٣١ ، الطبرى ، تفسير ج ٢ ص ١٩٩ (بصدد قرآن ٢، ٢١٧-٢١٤) ، أبو جعفر النحاس ، كتاب الناسخ والمنسوخ القاهرة ١٩٣٨، ١٣٥٧ ض ٣٢ وما يليها .

وشيء آخر ثابت وهو أن محمداً لم يكن يعبأ كثيراً بالقتال في الاشهر الحرم ، ولكن كان عليه أن يحترم معتقدات قسم كبير من أصحابه ، وأن يتجنب ماينشأ عن ذلك من صدى يهدد سلطته كنبي. ويجب أن نلح على هذه المسألة ، وهو أنه حتى ولو كان محمد ينتظر خرق الشهر الحرام على يد جنده المهاجم ، فليس في ذلك في نظر العربي أي شيء معيب مخجل ، إذا اعتبرنا الهجوم العام ضد الالحاد ، ولقد غضب القرشيون، ليس فقط لفقدهم حياة إنسان وخسارتهم قافلة غنية بل لأن هذه الأعمال كانت تقع تحت سمعهم وبصرهم .

٤ ـ معركة بدر

آذار ٦٢٤ م : ٢/٩ [١]

شجعت غنيمة غزوة نخلة سياسة الغزوات ضد القوافل المكية ، وقد استطاع محمد أن يجمع للحملة التالية ٣٠٠ رجل ، أي بزيادة مئة رجل على كل غزوة سابقة . وقـــد جاءت هذه الزيادة ، بدون شك من الأنصار ، لأننا نستطيع أن نفترض بأن جميع المهاجرين قـــد اشتركوا بالحملة الكبرى السابقة . ويقول ابن سعد انه اشترك ٢٣٨ رجـــلا من الأنصار في معركة بدر و ٨٦ رجلا فقط من المهاجرين [٢] .

ويبدو أن محمداً قد علم في الوقت المناسب ، ان قافلة كبيرة تستعد

---

(١) ابن هشام ٤٢٧–٥٣٩ ، الواقدي ٣٧–٩٠ ، طبري ١٢٨١ –١٣٥٩ ، كيتاني ج ١ ص ٤٧٢ – ٥١٨ ، ٣ حميد الله ، مغازي النبي محمد ١٩٥٣–١٣١٣ ص ١١– ١٧ . درس محمد عبد الفتاح استراتيجية هذه لمعركة وغيرها في كتابه محمد القائد ، القاهرة ١٩٤٥

(٢) ابن سعد ٢،٣ ، ٣–١

للرحيل عن غزة إلى مكة فقدر انها تستحق الاستيلاء عليها .

ويقال انها ، بالرغم من حراسة ٧٠ رجلا لها (وربما أقل) فإن السلع كانت تساوي ٥٠٠٠٠ دينار . فقد اشترك فيها جميع كبار التجار وأصحاب الأموال في مكة ، أي ان مكة بأجمعها كان يهمها أمر عودتها سالمة . وربما كانت مؤلفة من عدد من القوافل الصغيرة التي تجمعت زيادة في الحماية [١] .

وكان أبو سفيان بن حرب ، وهو من رجال مكة الأذكياء ، يتولى شؤون القافلة . ويبدو أنه أدرك مبكراً ان محمداً سوف يحاول مهاجمة القافلة . ولهذا أرسل في الوقت المناسب يطلب من مكة إرسال رجال للدفاع عن القافلة في الموضع الخطر (وتقول بعض المصادر انه لم يرسل رسالته إلا بعد أن علم باستعدادات محمد . ولكان هذا مستحيل بسبب الوقت) .

وقد أجاب المكيون بقيادة أبي جهل على رسالة أبي سفيان بارسال كتيبة قوية مؤلفة من ٩٥٠ رجلا تقريباً ، إذ اشترك فيها جميع المحاربين في مكة بعد أن وعد سيد بني كنانة ، ان كنانة ـ التي كان لها ثأر عند القرشيين ـ لن تهاجم مكة حتى ولو خلت من المدافعين عنها وتدل أهمية الكتيبة على أن أبا جهل حاول ، بدون شك ، تخويف محمد وأنصاره ، والحيلولة بينهم وبين لقائه في الميدان ومنعهم من غزو القوافل في المستقبل .

---

(١) ابن هشام ٤٢١، ٤٢٨ ، الواقدي ٣٤، ٣٩ ، قابل كايتاني ج١ـ٦٣ ٤ رقم ١ .

وقد علم القرشيون بعد عدة أيام من خروجهم من مكة ان القافلة أفلتت من محمد وانها سالمة . وكان السبب الوحيد للقتال الثأر لعمرو بن الحضرمي . وكان عتبة بن ربيعة من عبد شمس ، مستعداً لدفع دية القتيل حفظاً للسلام ، غير أن أبا جهل جعله يخجل بلباقة ، فسحب عرضه . وبذلك حمل ابو جهل القرشيين على التقدم . وكان يأمل ، بدون شك ، أن يتخلص من محمد نهائياً .

تلك هي رواية الخطوات التي قام بها المكيون تنقلها الينا مصادر متعددة . وتحتوي هذه المصادر ، وإن كانت معادية لمخزوم وموالية لعبد شمس ، على جزء من الحقيقة . فلم تكن صفوف القرشيين موحدة ، وقد انسحب من صفوفهم ، قبيلتا زهرة وعدي ، بعد اتخاذ القرار بالتقدم إلى بدر رغم سلامة القافلة . إذ أنهما اعتقدتا أن ابا جهل واصدقاءه سيكونون المستفيدين الكبار من تحطيم محمد ، وأخذ الخوف من القتال يسير اعمال المكيين لأن غالبيتهم كانت تعتقد ان المسلمين لن يجرأوا على مهاجمتهم .

لم يكن المسلمون ينتظرون الدخول في معركة عند سيرهم . ويقول أقدم مصدر وهو رسالة عروة لعبد الملك [1] . بأن الرسول وأصحابه لم يسمعوا بخروج القرشيين قبل مجيء النبي إلى بدر .

فلو علم المسلمون انه سوف تحدث معركة لامتنعوا عن السير .

وهناك قصة سقاء مكي اسره رجال محمد واستجوبوه ، وحين اخبرهم بالحقيقة عن جيش أبي جهل الصغير اعتقدوا انه يكذب عليهم فضربوه

(١) طبري ١٢٨٤ ، ترجمة كايتاني ج ١ ، ٤٧٢ .

حتى إذا ما روى لهم الأكاذيب عن أبي سفيان صدقوه ، ولم تكتشف حقيقة الأمر إلا حين استجوبه محمد بنفسه . ويبدو بهذه الصورة أن محمداً قد حصل على معلومات دقيقة عن القرشيين قبل أن يعرفوا شيئاً عنه ، فاستولى بذلك على زمام المبادرة .

ويتضمن قول القرآن « وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين انها لكم » . (اي القافلة او فرقة النجدة) ان محمداً علم بمقدم أبي جهل قبل وقت كاف من القتال ، حتى لا يجهل مع من سيكون اللقاء . ويقولون بأن الانصار لم يتعهدوا بالدفاع عن محمد إلا داخل أراضي المدينة ، وان محمداً قبل خوض القتال ، اجتمع بهم وطلب اليهم ما إذا كانوا سيساندونه في هذه الظروف . ونستطيع القول بأن المسلمين حين علموا بمكان القرشيين كانوا قريبين منهم . ولهذا كان كل انسحاب عاراً عليهم . ولكن الاقرب أن نقول بأن محمداً وجد الفرصة سانحة لمهاجمة القرشيين في ظروف مواتية واستطاع إقناع أصحابه بصواب رأيه .

وتاريخ المعركة هو السابع عشر أو التاسع عشر أو الواحد والعشرون من شهر رمضان من السنة الثانية للهجرة الموافق ١٣ أو ١٥ أو ١٧ آذار سنة ٦٢٢ م . وقد استولى محمد في الليلة السابقة ، بعد أن علم بمسير أبي جهل إلى بدر ، على آبار المياه ، ما عدا البئر القريبة من مكة ، حيث أقام رجاله . وهكذا أجبر أعداءه ، الذين كانوا بحاجة للماء ، على القتال فوق أرض وفي ظروف اختارها هو . ولم يقع القرشيون في كمين بل يبدو انهم وجدوا أنفسهم في وضع يستحيل عليهم فيه تجنب القتال

رغم الظروف المعاكسة . وإذا كانت المصادر صحيحة حول التفاصيل فقد علم القرشيون ، في اليوم السابق على القتال ، ان محمداً كان قريباً منهم ، ولكن لم يعلموا مكانه بالتأكيد . وكان وجوده في صباح اليوم التالي على الآبار مفاجأة لهم . ويبدو أنه نشبت مبارزات خاصة بين الأبطال وهي مقدمة لنشوب الحرب الحقيقية عند العرب . كما تبودلت السهام ، ثم حدثت الوقعة العامة التي أسفرت عن فرار القرشيين وقتل ما بين ٤٥ ـ ٧٠ قرشياً ، ومنهم أبو جهل نفسه وعدد من الزعمـــاء الآخرين . ووقع عدد مماثل من الاسرى . وكانت الغنيمة ضخمة ، وقد أعلن محمد ، حتى يمنع التوقف عن مطاردة العدو ، ان توزيع الغنـــائم سيكون بالتساوي بين الذين اشتركوا في القتال .

وقد عومل أسير أو أسيران بشدة وقسوة معروفتين عند العرب في ذلك العصر . وكانت العادة أن يفعل الانسان مـــا يريده بأسيره . وكان لا ينظر إلا إلى النفع الذي يعود عليه أوعلى قبيلته .

وقد حدث في بدر أن جاء مسلم بأسير ، فرآه جماعة من المهاجرين الذين كانوا يكرهونه فوثبوا عليه وقتلوه . وهكذا ضاعت الفدية على الرجل الذي أسره . وقد وضع محمد حداً لهذه الاعمال . وكانت سياسته عامة أن يحتفظ بالأسرى حتى دفع الدية ، أما الذين كانوا من قبيلته أو كانت تربطهم علاقة ما بالمسلمين ، وكذلك الذين لم يكونوا متنفذين ولا أغنياء تدفع دياتهم ، فكان يطلق سراحهم بدون دفع الدية . ولقد أخذ يدرك أهمية اكتساب قلوب المكيين بالنسبة اليه . واستثني عقبة